عوامل وأسباب ثبات العادات والتقاليد الدينية لقبائل محافظة ميسان

(دراسة تاريخية، اجتماعية)

الدكتور علي رضا واسعي[١]

الدكتور احمد عبد السادة الساعدي[٢]

Research Abstract:

Indeed, studying the social phenomena in the MISANI community has been so important just as same as other communities, especially in the fields of historical and social researches, and one of these phenomena is the phenomenon of the constancy of the religious habits and traditions in the tribes of MISAN city in the south of Iraq, and we believe that these habits and traditions are communal among the tribes of MISAN city, and while studying this phenomenon – the phenomenon of traditions and habits – we understood that some of these traditions and habits have never been changed and remained constant; and that was related to some different factors and reasons, like some environmental, cultural, civilizational, social, political and economic reasons.

[١] أستاذ مشرف، وعضو هيئة علمية ومدير قسم كل الأبحاث العلمية في مركز العلوم الإسلامي والإنساني في إيران.

[٢] خريج دكتوراه من جامعة المصطفى العالمية، وعضو هيئة علمية في موسوعة المزارات الشيعية في العراق.

This research has relied on the historical-scientific and descriptive approaches studies about the religious habits and also to study some different researches and and traditions, and also, I have done a field visit to MISAN city and met some of the tribes' heads and prominent personalities; to study and get some information about the situations of their common religious habits and traditions.

Key words: Habits, Traditions, Constancy, MISAN's Tribes.

ملخص البحث

إنّ دراسة الظواهر الاجتماعية في المجتمع الميساني كغيره من المجتمعات أصبحت ذات أهمية كبرى، خصوصاً في الأبحاث التاريخية والاجتماعية، ومن تلك الظواهر المهمة هي ظاهرة ثبات العادات والتقاليد الدينية عند قبائل محافظة ميسان في جنوب العراق، ونعتقد أنّ هذه العادات والتقاليد الدينية ظاهرة مشتركة بين قبائل محافظة ميسان، وعند دراستنا لهذه الظاهرة . ظاهرة العادات والتقاليد . تبين لنا أنّ بعضها ثابت ولم يتغير؛ وذلك لأسباب وعوامل مختلفة، منها: بيئية وثقافية وحضارية واجتماعية وسياسية واقتصادية.

وأما طريقتي في البحث، فقد اعتمدت على المنهج التاريخي العلمي والمنهج الوصفي، ومطالعة البحوث والدراسات والتحقيقات حول العادات والتقاليد الدينية، وأيضاً قمت بزيارة ميدانية لمحافظة ميسان، فالتقيت من خلالها ببعض رؤساء القبائل وشخصياتها؛ لغرض الاطّلاع ودراسة وضع العادات والتقاليد الدينية السائدة عندهم.

الكلمات المفتاحية: العادات، التقاليد، الثبات، قبائل ميسان.

مقدمة: إنّ العادات والتقاليد الموروثة هي من تشكّل أنماط الحياة والسلوك الإنساني الاجتماعي؛ لأنّها أمور أصبحت مألوفة ومعتادة لدى الجميع، تميل إليها النفوس، ويجتمع عليها الناس، ويصعب إقلاعهم عنها، قال الأستاذ كريم الكعبي: (لا يخلو أيّ مجتمع من عادات وتقاليد خاصة به، إذ أصبحت على مرّ الأيام قوانين تتحكم في سيرة أفراده، وتمدهم بالحركة في المجتمع وفقاً لها... وظلت متناقلة بين الأجيال... وميسان كباقي محافظات العراق الأخرى يتألف مجتمعها من حضر وريف، ويمكن القول إنّ جلّ حضرها

يرجعون إلى الريف... وإنّ لم يصدق هذا القول فإنّ قرابتهم ونسبهم يمتدان إلى الريف باستمرار... إذ هناك ترابط وثيق بينهما؛ ولذلك جاءت العادات والتقاليد متشابهة)[٣].

وبما أنّ العادات والتقاليد هي أمور اعتاد الناس على القيام بها في المجتمع . كما ذكرنا . أو ضمن عائلات ومجموعات محددة، فهي كالقواعد التي تم تدوينها وكتابتها من قبل أشخاص معينين؛ حتى يقوم الآخرون بتطبيقها والالتزام بها، وغالباً ما يطلق على الأمر الذي يقوم به العديد من الناس بالعادات، وتشمل العادات كلّ فعل يرتبط بالحياة اليومية لمجتمع معين؛ كعادات احترام الكبار في السن في المجتمعات العربية، أو عادة خلع الحذاء أثناء دخول المنزل، وغيرها الكثير من الأمثلة، وهذه الأمور لا تعتبر راسخةً أو ملزماً بها في المجتمع، ولكنها متعارف عليها، ويفضل الالتزام بها بقدر الإمكان، بينما كانت التقاليد عبارة عن مجموعة من الاعتقادات والسلوكيات المتوارثة من جيل إلى آخر في المجتمع منذ فترة طويلة من الزمن، وقد يرجع السبب في اتباع الناس هذه التقاليد إلى أمر فطري وطبيعي في نشأتهم، فكل عائلة تعلّم أبناءها تقاليد المجتمع الذي تعيش فيه منذ الصغر؛ كتقليد طريقة تناول الطعام، ففي اليابان مثلاً يتناولون الطعام باستخدام العيدان الخشبية، أما في الدول الأجنبية يتم تناوله باستخدام الشوكة والسكينة، كذلك الأمر بالنسبة لتقاليد الزواج والمناسبات الاجتماعية المختلفة، فكلّ مجتمع يعرف بأمور خاصة يتميز بها عن الآخرين، والتقاليد إمّا تقاليد حسنة حقة، وإما تقاليد سيئة باطلة [٤].

وعند مطالعتنا للعادات والتقاليد الدينية لأبناء محافظة ميسان، نجد أن كثيراً من تلك العادات ثابتة ولم تتغير طيلة السنوات الماضية، وهي تنتقل على مرّ الأجيال بدون أن تتغير، وعند بحثنا لهذه العادات والتقاليد توصلنا إلى أن ثبات هذه العادات والتقاليد وعدم تغييرها يرجع في الواقع إلى عوامل مهمة، ويمكن تقسيمها إلى مجموعتين: الأولى: عوامل بيئية وثقافية وحضارية، والثانية: عوامل سياسية واقتصادية.

١. العوامل البيئية والثقافية والحضارية

هناك مجموعة ليست بالقليلة من العادات والتقاليد ذات صبغة دينية، توارثتها أجيال المجتمع الميساني من أجدادهم، وبقيت مستمرة ومحافظة على دوامها واستمرارها، يعملون بها كجزء من مكونات حياتهم ومتطلبات

[٣] الكعبي، عبدالكريم، علكم، الحياة الشعبية في ميسان (دراسة اجتماعية . فولكورية)، ص١٩٤.

[٤] المذاهب الفكرية المعاصرة: ج٢ ص١١٨٦.

عقيدتهم، وهذا لا يخلو دون أن يكون وراء ذلك سبب معين، فكما أنّ نشأتها وظهورها كانت لها أسباب وعوامل خاصة، فكذلك رسوخها ودوامها في المجتمع الميساني كغيره من المجتمعات الإنسانية، وعليه فهناك عدّة عوامل ساهمت في إرساء وثبات هذه العادات والتقاليد الدينية لقبائل محافظة ميسان، طالما هي كغيرها من المحافظات والمناطق والبلدان الأخرى، وكان من بين أهم تلك العوامل والأسباب ما سنتعرض له عن طريق عدّة مطالب.

١.١. التأثير البيئي والعامل الجغرافي

تطلق البيئة على مجموعة الأوضاع، والظروف الخارجية التي تحيط بالفرد وتؤثر في تحديد معالم شخصيته، أو توجيه سلوكه، قال الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: (إنّ الإنسان إلى أيّ مدى يتأثر بعامل البيئة، فإنّ البيئة هي التي تستطيع أن تسوق الإنسان إلى الله تعالى، كما أنّ البيئة هي التي تسوقه إلى الوثنية، وأنّ البيئة يمكن أن تصير سبباً لأنواع المفاسد والشقاء، أو منشأ للصلاح والطهر. وإن كان اختيار الإنسان نفسه هو العامل النهائي . ولهذا اهتم الإسلام بإصلاح البيئة اهتماما بالغاً)[٥].

كما أنّ البيئة ترمز إلى علاقة خاصة بين فرد معين وظروف خارجية معينة، وتقتصر بيئة الفرد على الظروف الخارجية التي تحيط به شخصياً، دون ما يحيط منها بسواه؛ ولذلك تختلف عناصر البيئة باختلاف الأفراد، فإن تخلف احتمال تأثر الفرد بأحد هذه الظروف الخارجية المحيطة به خرج هذا الظرف من عداد العناصر التي تتألف منها بيئته.

إذن البيئة فكرة نسبية غير مطلقة، لأنّها تقوم أساسا على أمرين، هما: أولاً: الاتصال بالظروف الخارجية، وثانياً: التأثر بهذه الظروف.

ثم إنّ الناس يتفاوتون في اتصالهم بالظروف الخارجية، ومدى تأثير هذه الظروف على حياتهم بشكل عام، ورسم نمط الحياة وسلوكياتهم وتعيين عاداتهم، حيث إنّ اتصالهم بالظروف الخارجية لا يتوقف على مدى قرب تلك الظروف منهم فحسب، بل يتوقف على مدى قدرتهم على الاتصال بها، وقد أشار إلى ذلك الشهيد الأول بقوله: (ولذلك فلا يمكن للباحث أن يفصل الشخصية التي يريد أن يدرسها عن البيئة التي نشأ فيها، والمؤثرات البيئية التي تدخلت في تكوينها وصياغتها)[٦]، وعليه فإنّ (البيئة التي ينشأ فيها الفرد

[٥] الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج٥ ص١٩٥.

[٦] الشهيد الأول، محمد بن مكي، الدروس: ج١ ص٧.

ويتلقى أفكاره وثقافته الأولية لها أثرها الفعال في سائر أطوار حياته، ولها فعلها القوى في صياغة شخصيته وبلورة أفكاره وصقل مواهبه، ومهما كانت قابلية الإنسان فريدة، ونبوغه عالياً، فإنّ البيئة تؤثر فيه وتعطيه بقدر ما تأخذ منه، فيندمج بها فكرياً ويتأثر بها عاطفياً)[٧].

ثمَّ إنّ الشخص الواحد لا يحيا دائماً في بيئة ثابتة، وإنّما تختلف بيئته تبعاً لاختلاف الزمان والمكان، فبيئة الفرد في طفولته تختلف عن بيئته في شبابه، وكلتاهما تختلفان عن بيئته في شيخوخته، وبين الفرد في اليقظة عن بيئته في منامه، كذلك فإنّ بيئة الشخص في حلّه غير بيئته في ترحاله، وبيئته في محله تختلف عن بيئته في منزله، قال الدكتور الخليلي: (ونستطيع أخيراً أن نعرف الأشخاص بعد مرورهم في هذه الأدوار، من طرز سلوكهم وآرائهم وأعمالهم وبيعهم وشرائهم ودرجة ثقافتهم ونوعها، وأعظم من ذلك نستطيع أن نقدر من نوع الوراثة والتربية والمحيط حياة الناشئة وسلوكها الأدبي والأخلاقي والاجتماعي، فشتان بين من نشأ في أحضان النزاهة والفضيلة وكرم الأخلاق وتربى على يد أعظم مربي في البشرية وأسماهم خلقاً وأرفعهم مثلاً، ذلك الصادق الأمين محمدٌ ومن أبوين موحدين كريمين وبين غيره من الناس) [٨].

وقال الترمذي في الشمائل المحمدية: (فإنّ نفراً إذا اتخذوا في حياتهم كلها عادات معينة فإنّه يترجح أن تقوم صلاتهم المتبادلة على التعاطف، وأن يكون في عقولهم استعداد للتفاهم، من أجل ذلك جعل الإسلام . وهو الحريص على خير الناس الاجتماعي والفردي . من النقاط الجوهرية حمل أفراد البيئة الاجتماعية بطريقة منظمة على أن تكون عاداتهم وطباعهم متماثلة مهما كانت أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية متنافرة)[٩].

إذن يمكن القول إنّ البيئة كلّ لا يتجزأ ووحدة لا تتفتت، وليس بوسع باحث أن يعزو سلوك الفرد في ظرف معين في ظروف بيئته، والظرف الواحد مهما يكن خطره لا يقوى بمفرده على حمل تبعة السلوك بأكمله، وإنّما سلوك الفرد محمول دائماً على جملة الظروف التي تكوّن بيئته فضلاً عن تكوينه الشخصي بطبيعة الحال.

ويمكن أن تقسم الظروف البيئية إلى:

أولاً : من حيث نطاقها:

---

[٧] العاملي، مدارك الاحكام، مقدمة التحقيق: ج١ ص١١.

[٨] الخليلي، جواد جعفر، السقيفة الفتن: ص٤٩.

[٩] الترمذي، محمد بن عيسى، الشمائل المحمدية: ص٨.

١ـ ظروف عامّة: وهي التي تحيط بالفرد وبالجماعة التي ينتمي إليها، ومن أمثلتها: حالة الطقس والأوضاع الاقتصادية العامة والبناء الاجتماعي والعادات والتقاليد ونظم التعليم.

٢. ظروف خاصة: وهي التي تحيط بالفرد وحده، أو به وبقلة من الناس، ومن قبيلها الظروف العائلية، كمستوى الفرد الاقتصادي وحظه من التعلم.

ثانياً: من حيث طبيعتها:

١ـ ظروف اجتماعية: وهي التي تتصل بنظم الجماعة وأحوالها، كالأوضاع الاقتصادية والثقافية والدينية، ودرجة العمران ومدى كثافة السكان.

٢ـ ظروف طبيعية: وتشمل حالة الطقس وتتابع الفصول وتعاقب الليل والنهار وطبيعة التربة ونوع المحاصيل الزراعية.

ثالثاً: من حيث دور الإدارة في السعي إلى تحقيقها وقبولها:

١. ظروف مفروضة: على الفرد كأسرته التي ينتمي إليها، يعيش بينهم، وجيرانه الذين يشترك معهم في علاقات اجتماعية.

٢. ظروف عارضة: كمجتمع الدراسة في مرحلة الطفولة.

٣. ظروف مختارة: كجماعة الأصدقاء والزوج والزوجة في الأحوال الطبيعية[١٠].

رابعاً: من حيث ثباتها:

١ـ ظروف ثابتة: وتمثل الجانب الثابت في البيئة،كالأنهر والسهول والجبال.
٢. ظروف وقتية: الظروف الوقتية أو العارضة، التي تلم بالشخص إلماماً ثمّ تتوارى، ومن أمثلتها: كارثة عمل أو غدر صديق أو كلمة نابية تقال أو موقف تشجيع وتكريم، إنّ هذه الظروف وأن لم تكن من شأنها التأثير على نمو شخصية الفرد العامة إلّا أنّها قد تؤثر على سلوكه في لحظه معينة، ولهذا لا ينبغي إغفالها في علم الإجرام، وعلى الأخص عند دراسة دينامكية الجريمة وتعقبها في مختلف مراحلها منذ

[١٠] الوردي، علي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي: ص٢٠٥.

طرأت على الفرد كفكرة تهجس في خاطره حتى نضجت واستوت سلوكاً أقدم الفرد على إتيانه بأسلوب معين وفي زمان ومكان محددين[١١].

وعليه فلا شك أنّ للبيئة الميسانية والعوامل الجغرافية تأثيراً مباشراً على ثبات العادات والتقاليد في المجتمع الميساني ورسخوهما فيه؛ لأنّ الحدود الجغرافية لمحافظة ميسان والفاصلة بينها وبين غيرها من المحافظات الأخرى تحتضن مجموعة من العادات والتقاليد لأهل محافظة ميسان، بحيث يصعب على أهلها التخلي عنها باعتبار تعبر عن هويتهم وثقافتهم، وقد يكون لأفراد المجتمع الميساني على وجه الخصوص للطبيعة الجغرافية والاجتماعية أثر كبير في ترسيخ الكثير من العادات والتقاليد ذات الطابع الديني على وجه الخصوص، بحكم فطرتهم ومشاعرهم وأحاسيسهم الجياشة إزاء الكثير من القضايا الدينية التي يعتقدون بها ويمارسون في ظلها العديد من التقاليد والعادات الدينية، كالتي من قبيل إقامة مجالس العزاء لأئمة الهدى من آل البيت^، وتشييع الموتى وتقديم التعازي والوقوف إلى جنب صاحب المصاب مادياً ومعنوياً، وإحياء مواليد أهل البيت^؛ لأنّهم يرونها جزءاً من معتقداتهم، وذلك للحديث المروي عن أئمة الهدى^: > واختار لنا شيعة، ينصروننا ويفرحون لفرحنا ويحزنون لحزننا، ويبذلون أموالهم وأنفسهم فينا، أولئك منا وإلينا <[١٢]، وقد قال أبو عبد الله ×: > رحم الله شيعتنا، شيعتنا والله المؤمنون، فقد والله شركونا في المصيبة بطول الحزن والحسرة <[١٣]، وأيضاً جاء في قول النبي الأكرم محمد' للإمام أمير المؤمنين علي×: > يا علي أنت منى وأنا منك، روحك من روحي وطينتك من طينتي، وشيعتك خلقوا من فاضل طينتنا <[١٤]، بل إنّ العادات والتقاليد الدينية لأفراد المجتمع الميساني تمثّل نمط الثقافة التي يعبرون بها عن طبيعة معتقداتهم وأفكارهم وصلتهم بدينهم، ومدى التزامهم بذلك، فهذه وغيرها من العادات والتقاليد التي عرفت بها قبائل محافظة ميسان، كانت ولا زالت تخضع للتأثيرات الجغرافية لمنطقة محافظة ميسان، بالأخص إذا أخذنا بنظر الاعتبار التركيبة الاجتماعية ومكوناتها في تلك المحافظة؛ إذ إنّ جلَّ أهلها وعشائرها هم من الشيعة الإمامية، إلّا ما ندر ممّن يدين بغير

[١١] الزعبي، محمد، التغير الاجتماعي: ص٣٦.

[١٢] الصدوق، محمد بن علي، الخصال: ص٦٣٥؛ الحراني، ابن شعبة، تحف العقول: ص١٢٣.

[١٣] الصدوق، محمد بن عي، ثواب الأعمال: ص٢١٧؛ الحلي، ابن نما، مثير الأحزان: ص٦٢.

[١٤] الحائري، محمد مهدي، شجرة طوبى: ج١ ص٣.

هذا المعتقد، وهم أقليّة قليلة جداً[١٥]، كالصابئة والمسيح، وبعض أهل السنة الذين لا يشكلون بالنسبة إلى من يعتقد بمذهب أهل البيت^ أيّ أثر ملحوظ، خصوصاً وأنّ أكثرهم قد دخل تحت مظلة بعض القبائل والعشائر الميسانية، فتجده كثيراً ما يلزم نفسه في العمل بهذه التقاليد والعادات التي اعتاد عليها قبائل وعشائر ميسان[١٦].

١.٢. دور الإسلام وتعاليمه

إنّ من بين أهم الأسباب والعوامل في ثبات العادات والتقاليد الدينية في قبائل وعشائر ميسان، يرجع إلى ما حظيت به هذه المحافظة منذ القدم وإلى يومنا هذا بقيام رجال وعلماء الدين بالدور التبليغي والإرشادي بما يختص بالدين الإسلامي ومذهب أهل البيت^، فمن الطبيعي جداً عندما يدرك رجال وعلماء الدين الإسلامي بأنّ هناك من العادات والآداب ما يخالف الشريعة الإسلامية، فإنهم لا يقفون مكتوفي الأيدي، بل يسارعون إلى الوقوف بوجه هذه العادات، ويدعون الناس لمحاربتها، والكف عنها، بينما يؤكدون على بقاء واستمرار العادات والتقاليد الدينية وغيرها التي تنبع من أصل الدين وفروعه، قال الجنابي: (وإنّ الشريعة الإسلامية داعمة ومؤيدة للعرف العشائري والتمسك بالأصالة وبالتقاليد العشائرية إذا لم تكن مخالفة لأحكام الشريعة، ولم يستلزم منها تضيع حقوق الآخرين)[١٧]، والتي تنسجم مع مبادئ الدين وقيمه وروحه، كالتي تدعو الناس إلى وجوب الصلح وإنهاء الفتنة، وإقامة المآتم والعزاء والمشاركة في التشييع، وتواجد بعضهم عند البعض الآخر عند حلول المصائب وحصول النوائب، فضلاً عن قيامهم بعملية التكافل والتعاون على البر والتقوى، وسن بعض القوانين التي لا تتعارض مع الشرع الإسلامي، وإن لم تكن مطابقة مائة بالمائة مع الشريعة.

١.٣. العامل الثقافي والحضاري

[١٥] انظر: شبر، جاسم حسن، تاريخ المشعشعين وتراجم أعلامهم: ص٢٢. ٣٠.

[١٦] انظر: تقرير استراتيجية تنمية محافظة ميسان/ ٢٠١٥/٢/١١، الصادر عن مجلس محافظة ميسان: ص٢٠.١٦.

[١٧] الجنابي، كريم برهان، السنن العشائرية في المجتمع العراقي: ص٥٧.

لا شك أنّ للعادات والتقاليد أهمية عظمى في حياتنا الدنيوية، سواء كانت دينية أم غير دينية، وقد لا نشعر بذلك إلا في حالات خاصة، وبالأخص أنّنا لا نهتم بكوننا نحمل هوية محددة، وهي هوية لا يختلف عليها اثنين (هوية الإنسان الحر) التي يقوم أساسها على مبدأ الأخوة، إن لم يكن لك أخاً في الدين فهو أخاً لك في الإنسانية[١٨]، ولكن عندما ننظر إلى الواقع الخارجي من حولنا نجد أنّ كل الشعوب التي تحيط بنا تحاول قدر المستطاع، أن تتمسك ببعض المعتقدات والتقاليد التي تربت عليها، وتعتبرها جزءاً من هويتها، وتمثل لديها أثر حضاري وتاريخي، وهذا ليس لشيء إلا لأهميتها العظمى، فلو نظرت إلى المجتمعات التي تخلو من أي التزامات وما شابه، لعرفت أنّه من المهم التمسك بمثل هذه العادات والتقاليد، وعدم الاستغناء عنها مهما كلّف الأمر، ومن أبرز النقاط التي توضح أهمية ثبات العادات والتقاليد في المجتمع الميساني:

أولاً: إنّ العادات والتقاليد ترسم شخصية الفرد، وتجعله يفرق بين الأشخاص حسب الانتماء أو المكان الذي أتوا منه، حيث إنّ ذلك يجعلك تستشعر أهمية أن يكون لك وطن خاص وعقيدة خاصة بك تشعرك بانتمائك لها، فهذا بحد ذاته أمر يلزم عدم الاستهانة به.

[١٨] كما جاء ذلك في كتاب الامام علي× إلى مالك الاشتر: > ... ثمّ اعلم يا مالك! إنّي قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور، وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم، وإنّما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده، فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح، فاملك هواك، وشح بنفسك عمّا لا يحل لك، فإنّ الشح بالنفس الإنصاف منها فيما أحبت أو كرهت. وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبّة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنّهم صنفان: إمّا أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنّك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك والله فوق من ولاك! وقد استكفاك أمرهم، وابتلاك بهم... <.

ثانياً: إنّ استعانة الفرد بتاريخه وتقاليده وعاداته تجعلهُ أفضل الأشخاص، وأكثرهم حظًا؛ لأن لديه ما يحدّث به أبناءه عند الكبر، فهي بذلك تمثّل إرثاً تاريخياً وحضارياً[١٩].

وأما التقاليد التي ينبذها القرآن الكريم، فهي ما كانت راجعة إلى اتباع السنن بصورة غير منطقية، ودون الاستناد إلى أيّ معيار شرعي، فالقرآن الكريم يؤكد بطلان هذا النوع من التقليد، ويعتبره أحد أسباب انحراف البشر، ولأجل هذا الأمر أنّ كل الأنبياء^ قد حاربوا اتِّباع السنن أو التقاليد الخاطئة، فقد كانوا يرغبون في أن تكون للبشر حرية فكرية؛ لأن الإنسان الذي يتمتع بحرية فكرية لا يجعل من اتِّباع سُنن أسلافه ملاكاً لعمله، قال تعالى: { وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}[٢٠].

قال الشيخ السعدي: (أخبر تعالى عن حال المشركين إذ أُمِروا باتباع ما أنزل الله على رسوله، ... رغبوا عن ذلك وقالوا: { بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} فاكتفوا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا فآباؤهم أجهل الناس، وأشدهم ضلالاً، وهذه شبهة لرد الحق واهية، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق، ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم، فلو هدوا لرشدهم، وحسن قصدهم، لكان الحق هو القصد، ومن جعل الحق قصده، ووازن بينه وبين غيره، تبين له الحق قطعاً، واتبعه إن كان منصفاً)[٢١]، وعليه، فلا شك في أنّ ميسان في تأريخها البشري كانت تمثّل في الزمان السابق معلماً من معالم الحضارة في شتى الميادين والأصعدة، بل ربّما كانت من أولى الحضارات التي قامت في العراق، وكانت تعرف آنذاك بـ (ميشن) [٢٢]، ومن الطبيعي أنّ ذلك يترك بصمة على مسيرتها التاريخية في الحاضر والمستقبل، ومن الطبيعي جداً أيضاً أن يكون لمثل هذا أثر في ظهور العديد من العادات والتقاليد الاجتماعية ذات الطابع الديني، باعتبار أنّ الدين يمثل ظاهرة حضارية يواكب بسننه وتشريعاته الركب الحضاري، ويلبي متطلبات الإنسان في مختلف

[١٩] طاهر، حميد، تلول ميسان الأثرية (شواخص حضارتها، دراسة تاريخية، جغرافية، اجتماعية): ص٤٧.

[٢٠] الزخرف: ٢٣. ٢٤.

[٢١] السعدي، تفسير السعدي: ص٨١.

[٢٢] انظر: طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: ص٦٥٦.

أزمنته وأمكنته، وتبرز أهمية هذه المبادئ والقيم والأعراف والعادات والتقاليد في المجتمع الميساني من خلال ارتباطاتها بمعنى الحياة الذاتية للإنسان؛ فهي ترتبط بدوافع السلوك ذات الأهداف الخاصة التي يسعى الفرد والجماعة لتحقيقها، ومن هنا قد لا يستطيع الفرد في الغالب الخروج عمّا في عقيدته ممّا يكون ولا يكون، فمصادر المبادئ والقيم الثقافيةِ والعادات والأعراف والتقاليد الاجتماعيَّة السائدة في المجتمع الميساني، هي دين الجماعة وتاريخها وتراثها الحضاري والثقافي المتناقل والمنقول بالتربية من جيل لجيل، فالتنشئة هي وسيلة المحافظة على الأساسية منها بامتدادٍ أفقي في الجيل الواحد، وعمودي بتتابع الأجيال، فكلَّما تطوَّر العقلُ والتَّفكير البشري ظهرت المبادئ والقيم وتبلورت، لتتقلَّص عادات وتقاليد وأعراف فيتهذَّب بعضها ويختفي بعض آخر؛ ولذلك حينما يرقى البشر في التشريعات والتنظيمات فإنَّ ذلك يأتي في معظمه على حساب العادات والأعراف والتقاليد، لتعارضها معها إنسانيّاً، فيما هي تتماشى مع المبادئ والقيم التي تعدُّ مصادر لمعظمها؛ لذلك فالمجتمعات المحتفية بالمبادئ والقيم أكثر نضجاً تشريعيّاً وتنظيميّاً من المحتفية بالعادات والأعراف والتقاليد، والأخيرة أكثر تخلُّفاً في مجالات التشريع والتنظيم[٢٣].

وإنّ كثيراً من العادات والأعراف والتقاليد في المجتمع الميساني قد تتهذب، وقد تختفي أو تستبدل، فإنَّ المبادئ والقيم تتأكَّد بمرور الزمن وتقوى، ولكنَّها قد تضعف حينما تكون الأعراف والعادات والتقاليد أكبر في سلطتها التوعويَّة والثقافيَّة، وفيما الثانية أسبق ظهوراً في الثقافة والوعي ويحكمها قانون العيب وتلقى تقديراً قد يصل لحدِّ التقديس، فالأولى تلقى الاحترام والتعزيز المؤدِّيين لانتشارها، ويتحكَّم بها في ذلك الوعي والعقل، ومن نقاط التَّماسِّ بينهما ما ظهر بقصَّة الغلام الجالس إلى يمين رسول الله ' في الشرب بعده، فكونه الأَولَى مبدأ وقيمة، واستئذانه لتقديم الأكبر سنّاً عرف وعادة، فخيَّره ' بينهما فاختار المبدأ ولم ينكر عليه[٢٤]، وارتباط الشرف بعرض الأنثى دون الرجل عرف وعادة، ومساواتهما في الخطأ تجريماً وعقاباً وتوجيهاً وتأثيراً اجتماعيّاً مبدأ وقيمة، وعدم لبس القرني العقال عرف دعمته فتوى الإخوان في عهد الملك عبدالعزيز[٢٥]، ولبسي العقال

[٢٣] انظر: الطرفي، جمعة عيسى، أهل الريف في جنوب العراق (حياتهم، تقاليدهم، عشائرهم، شيوخهم، شخصياتهم): ص٣٢.٣٦.

[٢٤] انظر: الصدر، محمد باقر، الإسلام يقود الحياة: ص١٤.

[٢٥] انظر: الحسيني، اسحاق، اخوان المسلمين: ص١٢.

مبدأ وقيمة استدعته الوطنيَّة زيّاً، إذاً لنقيِّم عاداتنا وأعرافنا وتقاليدنا في ضوء القيم والمبادئ لا العكس، فتقييمها في ضوء ذلك سيقوِّمها، مُزيحاً سلبيَّها، ومبقياً إيجابيَّها، ومهذِّباً مختلطها.

٢. العوامل السياسية والاقتصادية

هناك كثير من السنن والعادات والتقاليد والقوانين تخضع للمؤثرات السياسية والاقتصادية في ثباتها، وهذا ما سنوضحه من خلال المطالب الآتية:

٢.١. أثر الأنظمة الحاكمة وسلوكيات الدول المتعاقبة على المجتمع الميساني

لقد تعاقبت حكومات متعددة ومختلفة الاتجاهات الدينية والفكرية على محافظة ميسان، منذ تأسيسها وإلى يومنا هذا، وكان لكل واحد من هذه الحكومات توجهاته السياسية والفكرية الخاصة به، وقد كان للمشيخة الموالية للدولة وغير الموالية لها أثر في رسم معالم العادات والتقاليد وسنن القوانين العشائرية، فقد خضع لواء العمارة لحكومة بعض المشيخة وغيرها في العهد الملكي وهكذا في العهد الجمهوري، وكذلك في العهد العثماني وزمن حكومة الانتداب البريطاني ونحوها [٢٦]، ومن الطبيعي جداً أن يكون لمثل هذه الأنظمة السياسية أثر كبير على ثبات بعض التقاليد والعادات الدينية وعدمها عند المجتمع الميساني، فمن العادات ما يتوافق مع توجهاتها السياسية، فتقوم بالتشجيع والتأكيد عليها، وما لم يتوافق مع توجهاتهم وسياستهم، فإنّهم يقومون بمنعها والمحاسبة عليها، غير أنّ مثل ذلك لا يعني القضاء على جميع العادات والتقاليد الدينية التي يؤمن أصحابها بها، بل قد يكون ذلك عاملاً قوياً في البقاء والثبات عليها والدفاع عنها، فإن سنحت لهم الفرصة في الدفاع عنها بالعلن دافعوا عنها وقاموا بجريانها والمداومة عليها، وإلا التجأوا إلى ممارستها سراً بعيداً عن أنظار وعيون السلطة، وقد كان لقبائل محافظة ميسان مواقف مشرفة في الدفاع عن معتقداتهم وعاداتهم التي تتناغم مع الشريعة الإسلامية، وهذا ما يكشف عنه طبيعة القيم والمبادئ التي تربوا عليها، قال الجنابي: (لقد سارت القبائل العربية على تقاليد وأعراف حميدة الصفات، كالتضحية والإيثار وحفظ الأمانة وحماية الجار وإكرام الضيف وتكريم الأسير وإيواء الدخيل واحترام الأحلاف والمواثيق ودفع الديّة وإيفاء

[٢٦] انظر: الندواني، عبدالكريم، تاريخ العمارة وعشائرها أو تأريخ ما أهمله التأيخ: ص٣٥.٢٧.

الوعود والالتزام بالسنن المعقودة بينها... وقد سارت على ذات النهج ليومنا هذا، مع تغيير بسيط يتماشى مع تطور الحياة والمجتمع)[٢٧].

وعليه فرغم كل ما تعرضت إليه قبائل محافظة ميسان وعشائرها من الضغوط السياسية من قبل بعض الحكومات اللادينية، والتي تخاف من سطوة هذه العادات والتقاليد الدينية على سلطتها، إلا أنهّا بقيت محافظة على هذه القيم والعادات والتقاليد المختلفة بما فيها الدينية منها، وغير الدينية التي لا تخالف روح الإسلام والشريعة والتي تعبر عنها بالسنن العشائرية، وتكاد تكون هذه السنن والتشريعيات العشائرية كمصدر يرجعون إليها في معالجة مشاكلهم الاجتماعية، دون التحاكم إلى القانون المدني ودستور الدولة؛ لأنّهم لا يرون فيه القدرة على حل مشاكلهم واختلافاتهم الاجتماعية، وإنّما يتم ذلك بالتحاكم لدى بعض الشيوخ[٢٨] في محل يعرف بـ (مضيف الستر) تجتمع فيه الوجوه من عشائر مختلفة، لها مكانتها الاجتماعية بما فيهم الأشراف من آل الرسول' (السادة الوجهاء)، وبما فيهم أيضاً الطرفان المتنازعان أصحاب القضية.

٢.٢. التأثيرات السياسية للدول المجاورة

من الطبيعي جداً أن يكون للدول المجاورة تأثيرات أساسية على المنطقة المجاورة، بحكم علاقات الجوار والتبادل التجاري والاقتصادي والاجتماعي، ويكون ذلك عامل آخر غير مباشر على ثبات العادات والتقاليد الاجتماعية، وبالأخص إذا كانت تلك الدول المجاورة متشابهة في العادات والتقاليد والمعتقدات الدينية، ومثل محافظة ميسان التي لها قواسم مشتركة كثيرة مع محافظة خوزستان المجاورة لها التي هي إحدى محافظات الجمهورية الإسلامية الإيرانية، فقد كان ولا زال أهل هذه المحافظة لهم علاقات اجتماعية وروابط عشائرية مع القبائل والعشائر الخوزستانية الإيرانية، وأنّ الحدود الفاصلة بينهما هي مجرد حدود للتنظيم السياسي ليس إلّا،

[٢٧] الحنابي، كريم برهان، السنن العشائرية، في المجتمع العراقي: ص٥١.

[٢٨] والمشيخة في المجتمع الميساني لها وضع خاص، إذ أنّ هناك نوعان من المشيخة العشائرية: (فالنوع الأول من اتسمت مشيخته بارتباطها بالوضع السياسي ودعم السلطة الحاكمة له، وهذا النوع كثيراً ما يزول بزوال الحكومة الداعمة له.. والنوع الثاني مستمد من قيَّم العشيرة وتأثيره، لما يتوافر فيه صفات تؤهله لقيادة العشيرة، فإن هذا النوع يبرزُ الدور الحقيقي للشيخ وهو دور اجتماعي أبوي فقط...) انظر: الجنابي، كريم برهان، السنن العشائرية في المجتمع العراقي: ص٢٤.

وإلّا فالزاوج قديماً وحديثاً ما زال حاصلاً بين الجارتين، وأنّ العديد من قبائل محافظة ميسان لهم أبناء عمومة في الجمهورية الإسلامية الإيرانية في المناطق القريبة منها، كمناطق خوزستان، ومثل هذه الروابط الاجتماعية تترك أثراً على سير العادات والتقاليد الدينية وغير الدينية منها، فهي إحدى العوامل المؤثرة في ترسيخ واستمرار وبقاء جريان وثبات هذه العادات والتقاليد[٢٩].

٢.٣. أثر الأوضاع الاقتصادية وأنماط المعيشة على العادات والتقاليد الدينية

تعيش بعض المناطق والبلدان وضعاً اقتصادياً معيناً، ومثل هذا يترك أثراً كبيراً على نمط الحياة ورسم معالمها، بما في ذلك تعيين وتحديد نوع التقاليد والعادات الاجتماعية في هذه المناطق، وميسان منذ أن كانت ولا زالت تعيش وضعاً اقتصادياً خاصاً رغم وفرة خيراتها وكثرة معادنها، إلّا أنّ الأنظمة السياسية كان لها الأثر الكبير في تحديد وضعية المعاش والاقتصاد المتردي فيها، ومثل هذا لا شك أنّه يترك أثراً كبيراً على طبيعة العادات والتقاليد التي يشتهر بها أهل هذه المحافظة، للحفاظ على أصالتهم وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية، وبالخصوص إذا كانت هذه التقاليد المتوارثة عندهم تتناغم مع المعتقدات الدينية التي يؤمنوا بها، منذ عرفوا بانتمائهم وولائهم لأئمة أهل البيت^، فقد عرف أهلها بتشيعهم لأئمة أهل البيت^ وتصلبهم في الدفاع عن عقيدتهم[٣٠].

فالإنسان الميساني يعيش كغيره حياته بطريقة تتوافق مع الظروف المعيشية والعادات والتقاليد السائدة في المجتمع، وهذه الأمور اعتاد على وجودها بشكلٍ أو بآخر، رغم قِدمها وغرابة بعضها، وجهله بمدى حاجاته لوجود بعضها، وصعوبة الاستغناء عنها؛ لفقدانها أيّ تأثير إيجابي في الحياة، وعرقلة بعضها لمسار تطوير المفاهيم الدنيوية الحديثة، فالعادات هي مجموعة من الأمور اعتاد الإنسان على القيام بها منذ الصغر، أما التقاليد فهي موروث ثقافي ورثها الإنسان عن آبائه وأجداده، فهي تؤثر في نشأته كركائز أساسية في التكوين العقلي والنفسي لقاطني كثير من المجتمعات التي تحكمها هذه الظاهرة الاجتماعية بِقُوة، أمور تتبعها الأجيال

[٢٩] الطاهر، عبد الجليل، العشائر والسياسة: ص١٠٨؛ إضافة إلى المعلومات والمشاهدات الميدانية.

[٣٠] انظر: الحموي، ياقوت، معجم البلدان: ج٥ ص٨٨.

من دون العلم بأصلها وفصلها، ولو رغب أحدهم في التخلي عن بعضها لأصبح كأنّه أبدى سوء النية تجاه المجتمع، وقام بفعلٍ شنيع لا يمكن تقبله من البعض[٣١].

النتائج:

إنّ لكلّ مجتمع من المجتمعات البشرية عادات وتقاليد تختص به، والمجتمع الميساني كغيره من المجتمعات له عاداته وتقاليده الخاصة به.

فالعادات والتقاليد لقبائل وعشائر محافظة ميسان مرت بعدة ظروف كانت لها الدور المهم في ثباتها وعدم تغيّرها، حيث إنّ العوامل البيئة والثقافية والحضارية كانت إحدى الأسباب لثبات بعض العادات والتقاليد، ولا يمكن أن نغض البصر عن دور الإسلام وتعاليمه والمنبر الحسيني في ثبات وعدم تغيير بعض العادات للمجتمع العشائري، فإنّ المبلغين الحوزويين قد لعبوا دوراً مهماً في ثبات العادات والتقاليد الدينية السائدة عند عشائر وقبائل محافظة ميسان.

إضافة إلى ذلك فإنّ من أهم العوامل التي كانت سبباً في ثبات بعض العادات والتقاليد هي عوامل سياسية كأثر الأنظمة الحاكمة وسلوكيات الدول المتعاقبة على المجتمع الميساني، والتأثيرات السياسية للدول المجاورة، وعوامل اقتصادية، حيث إنّ أنماط المعيشة كان أحد الأسباب لثبات وعدم تغيّر بعض العادات والتقاليد.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

١. باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الناشر: دار أضواء بيروت.

٢. الترمذي، محمد بن عيسى، الشمائل المحمدية، الناشر: دار الحديث، بيروت.

٣. تقرير استراتيجية تنمية محافظة ميسان: ٢٠١١ . ٢٠١٥م.

[٣١] انظر: المالكي، عقيل، ميسان وعشائرها قديماً وحديثاً: ص١٨١. ١٩٧.

٤. الجنابي، كريم برهان، السنن العشائرية في المجتمع العراقي، الناشر: دار الرافدين، لبنان، بيروت، ٢٠١٣م.

٥. الحائري، محمد مهدي، شجرة طوبى، الناشر: منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها . النجف الأشرف، ط ٥، سنة الطبع: ١٣٨٥هـ ش.

٦. الحراني، ابن شعبة، تحف العقول، تصحيح وتعليق: علي اكبر الغفاري، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي، التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، سنة الطبع ١٤٠٤-١٣٦٣ش، الطبعة الثانية.

٧. الحسيني، إسحاق، إخوان المسلمين، الناشر: ميريت للنشر والمعلومات.

٨. الحلي، ابن نما، مثير الأحزان، الناشر: المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف.

٩. الحموي، ياقوت، معجم البلدان، الناشر: دار إحياء التراث العربي . بيروت . لبنان.

١٠. الخليلي، جواد جعفر، السقيفة الفتن، انتشارات: دار الأعلمي . بيروت . لبنان.

١١. الزعبي، محمد، التغير الاجتماعي.

١٢. السعدي، عبد الرحمن، تفسير السعدي، الناشر: مكتبة دار السلام للنشر والتوزيع، سنة ط: ٢٠٠٢م.

١٣. شبر، جاسم حسن،تاريخ المشعشعين وتراجم أعلامهم، الناشر: مطبعة الآداب.

١٤. الشهيد الاول، محمد بن مكي، الدروس، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ط٢، سنة الطبع: ١٤١٧ هـ ق.

١٥. الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، انتشارات: دار الأعلمي . بيروت . لبنان.

١٦. الصدر، محمد باقر، الإسلام يقود الحياة، الناشر: الشركة العالمية للكتاب، ط: ١.

١٧. الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، الخصال، تحقيق: تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الناشر: جماعة المدرسين في الحوزة العلمية . قم المقدسة، ط: ١٤٠٣هـ ق . ١٣٦٢هـ ش.

١٨. الصدوق، محمد بن علي، ثواب الأعمال: الناشر: جماعة المدرسين في الحوزة العلمية . قم المقدسة، ط: ١٤٠٣هـ ق . ١٣٦٢هـ ش.

١٩. الطاهر، عبد الجليل، العشائر والسياسة، الناشر: مكتبة المثنى.

٢٠. الطرفي، جمعة عيسى، أهل الريف في جنوب العراق، الناشر: الدار العربيه للموسوعات، لبنان، بيروت، سنة الطبع: ١٣٨٣هـ ش.

٢١. العاملي، مدارك الأحكام، مقدمة التحقيق، الناشر: دار الحديث للطباعة والنشر، قم، ايران، ط١، سنة الطبع: ١٤٢٦هـ.

٢٢. عواجي، غالب، المذاهب الفكرية المعاصرة، الناشر: المكتبة العصرية الذهبية، ط١، سنة ط: ١٤٢٧هـ.

٢٣. الكعبي، كريم، الحياة الشعبية في ميسان (دراسة اجتماعية . فولكلورية)، الناشر: دار الضياء للطباعة والتصميم، النجف الأشرف، ط١، سنة الطبع: ٢٠١٠م.

٢٤. المالكي، عقيل عبد الحسين، ميسان عشائرها قديماً وحديثاً، مطبعة الجاحظ، بغداد، سنة الطبع: ١٩٩٢م.

٢٥. مجموعة من المحققين (كريم الكعبي، حميد طاهر، عدنان الهاشمي)، تلول ميسان الأثرية، الناشر: دار الكتب والوثائق . بغداد، سنة الطبع: ٢٠١٣م.

٢٦. الندواني، عبد الكريم، تاريخ العمارة وعشائرها، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٥م.

٢٧. الوردي، علي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، الناشر: مكتبة دجلة والفرات، بيروت.